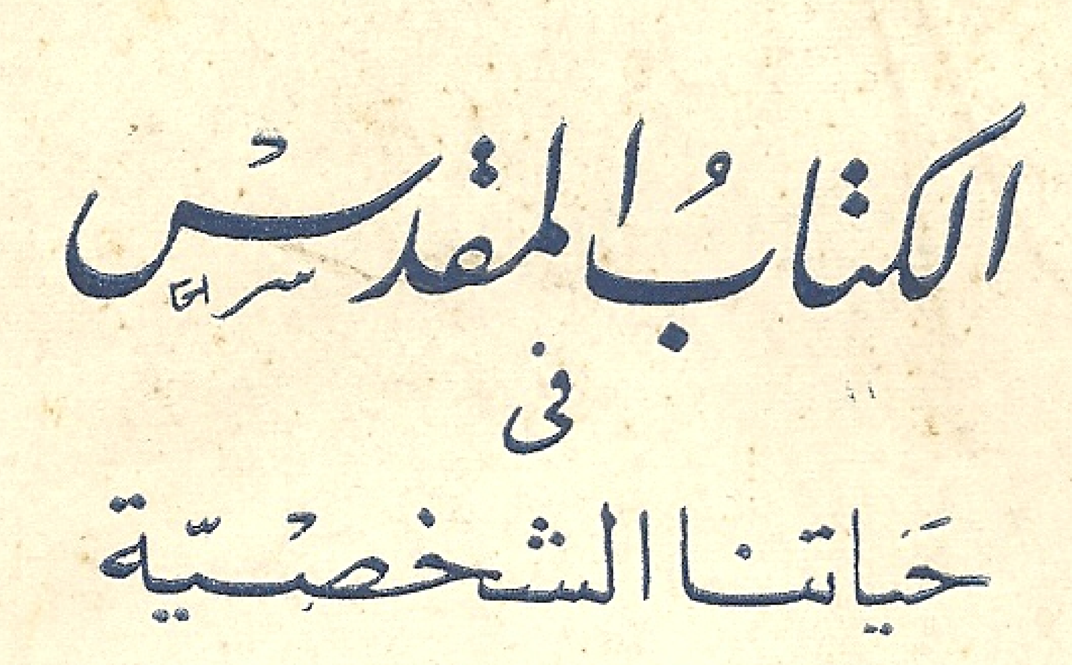


صدر عن دار مجلة
مرقس

الكتاب المقدس فى حياتنا الشخصية

« كل الكتاب هو موحى به من الله ونافع للتعليم والتوبيخ للتقويم والتأديب الذى فى البر . لكى يكون إنسان الله كاملا متأهبا لكل عمل صالح » (٢ تى ٣ : ١٦) .

ما هى غاية مطالعة كلمة الله ؟

« وأما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل » (يو ١٠ : ١٠) .

إن تلك الحياة الأفضل ، أى الحياة فى الروح القدس المدعو اليها كل إنسان ، هى التى نبتغيها من مطالعة الكتاب إذ : « ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله » (تث ٤ : ٤) .

وهكذا فإن مطالعة كلمة الله تظهر لنا قبل كل شيء كطعام يغتذى به الإنسان ليحيا فى الله .

فهذه هى غاية الله من اعلان ذاته لنا فى كتابه المقدس وفى سر تجسده وفدائه . لأنه ما قيمة تجسد ابن الله ، وما فاعلية

انحداره إلى صميم طبيعتنا إن كان هذا التجسد لا يملأنا الله منه ولا يحولنا إليه ؟

إن الله نفسه باستعماله كلمة الطعام فى التعبير عن مختلف طرق التماسنا له ، يعلمنا أن هذه الطرق إنما هى اغتذاء من حياته تعالى : « طعامى أن أعمل مشيئة الذى أرسلنى وأتمم عمله » .

« جسدى مأكل حق ودمى مشرب حق » .

« وُجد كلامك فأكلته فكان كلامك لى للفرح ولبهجة قلبى . . . » (أر ١٥ : ١٦) .

فمطالعة كلام الله ، والعمل بمشيئته يوفر لنا الغذاء الإلهى الذى نعيش به هنا حياة الملكوت . . . ثم التناول من جسده ودمه يحقق ذلك على صعيد الإيمان والواقع .

لذلك فمطالعة كتاب الله فى طريق جهادنا والتماسنا بوجهه تعالى هو تعبير عن الطاعة بمشيئته ، والصورة النظرية لتناول جسده . فالاعلان الإلهى دوّن فى الكتاب ، وبه تبدأ معرفتنا لله . وكلمة الله حية وفعالة ، فكلما ازددنا فهماً لها وإصغاء ، كلما ازداد فعلها وحلولها فينا .

فمطالعتنا لكلمة الله غايتها بالنتيجة حلول الكلمة فينا .

الكتاب المقدس والآباء :

إننا نرى الآباء لا يخشون المبالغة عند نعتهم الكتاب المقدس بفردوس الحياة الأبدية وينبوع الروح القدس وحقل الملكوت .

فيقول عنه القديس يوحنا ذهبي الفم : إنه فردوس أشهى من الفردوس الأرضى وقد أقامه الله فى نفوس المؤمنين فى كل الأرض وإلى أقصى المسكونة : إلى كل الأرض خرج منطقهم وإلى أقاصى المسكونة كلامهم » ، وأيضاً قوله : « طوبى للرجل الذى فى ناموس الرب هواه وبشريعته يلهج نهاراً وليلا لأن من يجلس قرب ينبوع الكتاب المقدس مرتوياً من مياهه على الدوام يتقبل فى نفسه ندى الروح القدس » .

« إن مطالعة الكتاب المقدس بنفس منفتحة تائبة خاشعة هى بمثابة تطهير وغسل فى الأنهار وكأنه يقول «معمودية» .

والقديس غريغوريوس الكبير يقول : « إنه رسالة من الله إلى خليقته » ورسالة الله إعلان عن ذاته .

والقديس ايرونيموس يقول : « إننا نتناول جسد المسيح ودمه فى الافخارستيا ولكننا نتناولها أيضاً فى الكتاب المقدس . لذلك كلمة الله حية وخارقة إلى مفرق النفس والروح » .

هناك إذن « سر » فى مطالعة الكتاب « أنتم أنقياء بسبب الكلام الذى كلمتكم به » و «السر » تقبلٌ لله وتحولٌ اليه .

ولذلك يقول العلامة أوريجانوس أن إهمال كتاب الله وعدم اقتبال كلامه تعالى بحرص واحترام لا يقل جرما عن الاستخفاف بجسد الرب عينه .

مراحل مطالعة الكتاب المقدس

الكتاب المقدس وتدرج الحياة الروحية

ولكن هذا العمل السرى العظيم لا يتم دفعة واحدة . فالله الذى رعى شعبه اسرائيل مدى أجيال وعصور ينعطف أيضاً إلى ظروف كل نفس ويقودها إليه يوما بعد يوم . وقد علمنا هو أن نطلب « خبزنا كفافنا » يوما بعد يوم . . وهذا الخبز الجوهرى سواء أكان كلام الله أو عمل مشيئته أو تناول قدساته يرافقنا ويتكيف حسب ضعفنا فى مختلف مراحل حياتنا الروحية . فالحياة الروحية سعى وصعود لا ينتهى وراء الذى صعد إلى السماء « ولا نهاية لحياته » .

والكتاب المقدس أكثر من غيره يماشى بصورة واضحة تدرجنا نحو الله ، صائراً لنا لبناً أو بقولا أو طعاماً قوياً

حسب الحال . بل إن سير النفس كله ينعكس ويتراءى فى مراحل تفهمها لمعانى الكتاب وتوغلها فى سره وأعماقه ، بقدر ما يمكن أن يتراءى سير النفس فى سبل الله الحى .

وبديهى أننا إن أردنا أن نستعرض مراحل هذا التعمق التدريجى فى الكتاب ما استطعنا إلا الإشارة والتنويه فقط وتقديم بعض الأمثلة عند الإمكان .

المرحلة الاولى

لابد من القول أولا أن المرحلة الأولى فى تقبلنا لسر الكتاب هى أن نقرأه حتى دون أن نفهم . ولكن هـــذه المطالعة، وإن كانت بدون فهم، فهى لا تخلو من نفع روحى كما يقول القديس يوحنا ذهبى الفم، إذ تفتح أمامنا مجالا للتقديس .

وإلى جانب هذه القراءة المتكررة المتواصلة التى تغذى النفس كالمطر الخفيف لابد من موقف داخلى أساسى يوجه كل سيرنا الروحى عبر الكتاب وهو : أن نلتمس الله فى الكتاب . فلا نقرأه طلباً لمعرفة أو حجج أو حلول أو لذة بل طلباً لوجه يسوع ، وكأن الكتاب نفسه يعلمنا ذلك إذ ينتهى متوجاً بهذا التضرع والنداء : « تعال أيها الرب يسوع » (رؤيا)

والتماس الله فى الكتاب يتطلب إنكاراً كلياً للذات . فالكتاب المقدس غير باقى الكتب . ليس هو أعظم من جميعها أو أكثرها حكمة أو عمقاً أو ما شابه ذلك مثلا ، بل هو كتاب آخر بالكلية، مفتاحه منه وفيه . فالحكمة البشرية لا تفيد شيئاً فى فهم الكتاب ، ولا المعارف الأخرى، فكلها تشكل غشاوة على العيون . فلنخلع إذن هذه وتلك فإن المكان مقدس « نحن داخلون إلى قصر السموات فلندع كل فكر عالمى، كل تشتيت وبلبلة ، ولندخل فى هدوء وصمت عميق » هكذا يتكلم القديس يوحنا ذهبي الفم ... كما يعلمنا القديس اسحق السريانى أن نصلى عند البدء بمطالعة الكتاب : « أعطنى يارب أن أكتشف قوة كتابك » .

وعلى هذه الصورة البسيطة والفهم السطحى ندخل شيئاً فشيئاً إلى أعماق الكتاب حتى نبلغ القصد الكامل فيه .

ولكن الطريق لازالت ممتدة إذ فى البدء يظهر الكتاب كالجسد البارد أو كالأرض القاحلة ، وليس ما يبهج النفس لأن النفس تكون متحجرة وغير مهيأة بعد لفهمه .

المرحلة الثانية :

وهنا نقرأه كقصة وكعبرة: فتجد النفس فيه أمثلة حية تبدأ تقتدى بها بل وعوناً مناسباً لها يرد عنها الأفكار الشريرة

وتعزية أيضاً فى الضيقات . إذن فقد سارت النفس فى طريق الله وبدأت تفهم وصاياه وتجد لها فى الكتاب حكمة «سلوكية» كعفة يوسف مثلا ووداعة موسى وصبر أيوب . . . ترتاح إليه وتعتاد مطالعته . ولكنها لا تنتبه إلى الحضرة الإلهية الحية التى فيه ، ولا تعرف أن تنتفع بهذه الحضرة كما كان الحال مع خصى كنداكة قارىء سفر إشعياء : « عن من يقول هذا النبي ، عن نفسه أم عن واحد آخر ؟ » .

وحتى ولو تعرّفت على نبوءات الكتاب وحوادثه ، واستذكرت آلام المسيح وقيامته ، فلا تتحرك ولا يلتهب قلبها لأن المسيح لم يأت بعد ليرافق النفس كمعلم ، يفتح الذهن ويفسر الكتب !

نعم قد يأتى المسيح باكراً ، لكنه وقد يتأخر . فعلينا أن نترقبه ويكفى أن نلهج باسمه ونحفظ وصيته ونتأمل تدبيره : وهذا هو الهذيذ بالكتاب . إنه عون ويليق أن يرافق حياتنا فى طريق هذه الحياة .

إذن فلا نقرأ ثم ندع الكتاب جانباً فنقطعه عنا ونلغيه من وجودنا ، بل نبقيه معنا فى فكرنا وفى قلوبنا .

ومن الأعمال الصالحة أن نطالع فى الصباح ونحتفظ بآية واحدة نختارها شعاراً ليومنا فتكون زاداً لروحنا مسيرة يوم.

وقد تكون آية بسيطة ولكن إذ نمارسها نكتسى بلاغة روحية عجيبة. هكذا نتذوق الكتاب . وهكذا ننعم بحلاوته.

المرحلة الثالثة :

هنا نقرأ فنتعرف على الصوت الإلهى فى الكتاب وحينئذ تصير الآية موجهة إلينا أيضاً بصورة واضحة . وكأن المسيح لا يقول للأعمى وحده بل ولى أنا أيضاً « أتؤمن بابن الله ؟ »

وهكذا نتمثل الكتاب لأنفسنا شيئاً فشيئاً ونتقبل معانيه بعمق يوما بعد يوم حتى يصبح منهجا ذهنيا لنا يوجه حياتنا ويضبط سلوكنا ويدعم حديثنا ووعظنا بالكلمة والآية فى أوقاتها فيصير الكتاب رفيقا يمدنا بالصوت الإلهى فى جميع الظروف .

تداهمنا التجربة فنسمعه متكلما فينا « اللهم إلى معونتى يارب أسرع إلى اغاثتى »

نسقط فنسمعه يصرخ «ياسيد إن أردت تقدر أن تطهرنى».

تزعجنا عواصف الشك فينادى أعماق النفس « لماذا أنت منحنية يانفسى ولماذا تئنين فىّ ـ ترجى الله لأنى بعد أحمده خلاص وجهى وإلهى »

وقد تتخذ بعض الآيات بروزاً خاصا بالنسبة لنا فتصبح عنوانا بليغا لوضعنا الروحى وتتحكم فى مصيرنا أمام الآب.

لأننا نكون قد أصغينا إليها بكل جوارحنا فنقشت فى أعماقنا ولا تزال تصرخ فينا وتدمى .

إنه الكتاب يجابهنا أحيانا مجابهة جذرية رهيبة فيديننا ويكشف مأساتنا فى العمق « أنت هو الرجل » « ولماذا أنت هنا يا ايليا »

إنه تطهير النفس الذى لابد أن نحوزه بالكتاب وفى الكتاب حيثما تبدأ النفس تشعر حقاً بخطيئتها ورجسها أمام قدسية عرش الله حينما يعكس الكتاب عراكها مع الأهواء وصراعها مع ذاتها فى الليالى الحالكات وتبدأ النفس تفهم أن الإثم والألم والجهاد هو طبيعتها وأن الخلاص والبهجة والسلام إنما هو منحة من الرب .

وإذا ما تعلمت النفس الصبر على ذاتها وعرفت قيمة الخلاص توقفت على الآيات المناسبة .

« انفلتت أنفسنا مثل العصفور من فخ الصيادين الفخ انكسر ونحن فلتنا » (مزمور ١٢٤)

« الرب إلهكم السائر أمامكم هو يحارب عنكم . . . » (تث ١ : ٣٠)

كل هذا وكأن تجاوباً صميماً يقوم بين النفس والكتاب . فالآيات تعبر عن حالات النفس وتستوقفها، والنفس تكتشف

الآيات بإلهام الله وتقرأها كما فى مرآة ، وتخرجها من كنوز القدير جدداً وعتقاء .

يروون أن الآباء كانوا يتلون المزامير كل مرة كأنها من تأليفهم ، وأن البارة مريم المصرية تلت فى مسامع الآب زوسيما مقاطع كاملة من المزامير وهى لم تطالع المزامير فى حياتها البتة فالنفس مطبوعة على صورة الكتاب ، والكتاب صورة « الانسان الكامل »

زيادة فى الوضوح

وكلما تطهرت النفس كلما ازداد الكتاب وضوحا فعمقت معانيه وارتبطت آياته . ولكن يحدث أن تميل النفس أحياناً إلى تفهم رمزية بعض الآيات الغير ظاهرة أول الأمر أو أن تنفذ النفس مباشرة إلى عمق الروح والحكمة والتقوى التى فى الآيات أو أن تهتم النفس بالشريعة الأساسية للنضال الروحى من خلال الآيات .

« لأنكم بدونى لا تقدرون أن تفعلوا شيئا » (يو ١٥: ٥)

«لم تقاوموا بعد حتى الدم مجاهدين ضد الخطية» (عب ١٢: ٤)

انه مبدأ اتفاق عمل النعمة مع تحقيق إرادة الإنسان : أعمل وأجاهد حتى النهاية كأن خلاصى يتوقف على جهودى ولكنى فى الوقت نفسه لا أنتظر الخلاص إلا كنعمة مجانية من الله .

وفى هذا تزداد النفس فهما وإحساساً للحوادث والتواريخ فترى فى تاريخ شعب الله - مثلا - تاريخاً خاصا بها فتعيش كل حادثة منه كمرحلة حقيقية لحياتها هى .

وتخطو النفس بعد ذلك خطوة أخرى فترى وحدة الكتاب كله عبر حوادثه ، وحدته العميقة فى تياراته الكبرى ، فى قصد الله الواحد فيه عبر مراحل تحقيقه - فيلتحم العهد القديم بالجديد ويستنير ، ويلتقى كل شىء فى نقطة واحدة ، فى المسيح محور الكتاب وغايته .

« الذى سمعناه الذى رأيناه بعيوننا الذى شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة ... فان الحياة قد أظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية » (١ يو ١ : ١ و ٢) .

وتؤخذ النفس بهذه الحضرة الكاملة الأبدية فى شخص الرب فتحل عندها محل كل مرحلة وكل رمزية وكل فضيلة وكل شريعة . وإذا هامت النفس بالله واستمرت تلتمس وجهه أصبحت كل مطالعة لها فى الكتاب موعداً مع الرب . وسفر المزامير خصب للقاء الرب فإلى جانب المزامير النبوية الصريحة التى تشير إلى المسيح تتبين النفس فى المزامير - إجمالا - مزجاً غريباً بين شخص القارىء وشخص الرب .

فينتقل المعنى المقصود فى الآية الواحدة ، أو فى المقطع

الواحد ، من الرب إلى النفس ومن النفس إلى الرب فى سر من المبادلة والاتحاد العجيب بين الإنسان الخاطىء والإله المتأنس .

« أنا اضطجعت ونمت ـ استيقظت لأن الرب يعضدنى . .
قم يارب خلصنى يا إلهى لأنك ضربت كل أعدائى على الفك ـ .
للرب الخلاص . على شعبك بركتك » (مز ٣) .

وفى هذا المزج العجيب بين النفس والمسيح ترتفع النفس وراء المسيح ومعه، من البؤس والحمأة إلى خلاص الرب ومجده ـ وتنشد معه بصوت واحد :

« لن تدع قدوسك يرى فساداً . عرفتنى طرق الحياة .
تملأنى فرحا أمام وجهك عن يمينك نعيم إلى الأبد » .

أسفار الكتاب وكشف المسيح :

ولكن كل سفر من الأسفار المقدسة يُظهر المسيح بطريقته إذا جاز القول : فبديهى أن سفر العدد يختلف فى ذلك عن سفر نشيد الأنشاد مثلا ، وسفر أيوب عن سفر دانيال النبى. ولكن يمكن القول أن المسيح الكلمة ، بالنسبة للنظر النقى يظهر فى كل شىء من خلال شفافية الكتاب كله .

المرحلة الأخيرة :

وهناك مرحلة يحضر فيها المسيح فى الكتاب بواسطة

الكلمات ـ إذا جاز القول ـ ان القديس باسيليوس الكبير يوصينا بأن نربى ذهننا فى الصلاة « حتى يكون حساساً لقوة كل كلمة ، كما أن اللسان حساس لطعم المآكل » .

فالنفس التى توصلت إلى هذه الحال لا تطالع الكتاب على مستوى الكلمات المكتوبة بل بينما هى تقرأ تجرى فوق مستوى الكلمات إذا صح التعبير مرتشفة من ينابيعها الخفية حياة أبدية . إنه انتقال من المستوى العقلى إلى المستوى القلبى الروحى ، الذى يحوى المستوى العقلى ولكنه يتجاوزه فتتخذ الكلمات ـ إلى جانب مفهومها العقلى ـ مذاقة أخرى وتكشف عن حضرة إلهية لا توصف

ومن الطبيعى أن هذه الحضرة الإلهية تبلغ أوجها فى شخص الرب يسوع ولذلك يأتى وقت تترك النفس فيه الكتاب وتجد فى شخص الرب يسوع خلاصة الكتاب كله وزبدته . وتجد أن الاستمرار فى قراءة الكلام المكتوب يصبح عبئاً وحاجزاً بين النفس والرب يسوع إذ يلزم هنا نزول العقل إلى صمت القلب للقاء رب الوجود. فكلمة الله الحى يستعلن فى الصمت الأزلى . فإذا طرحنا حقاً كل اهتمام آخر ، هناك فى صميم قلبنا الصامت حيث صورة الله قائمة يشرق علينا نور وجهه .

وكلما صلى المرء طالباً الرب والتصقت روحه باسمه القدوس

كلما اشتاق إلى الاتحاد به الذى لا يكمل إلا فى سر الافخارستيا.

حيث يبلغ الإنسان إلى قمة ما أنعم علينا به الرب فى تنازله العظيم. وهذا واضح فى خبرة تلميذى عمواس اللذين كان الرب يسوع يفسر لهما الكتب على الطريق، ولكن عند كسر الخبز فقط عرفاه. وهكذا يتخذ كتاب اعلان الله وتنازله الينا معناه الأخير ريثما يأتى الينا الرب فى مجيئه الثانى الأخير.

الكتاب المقدس والصلاة

لقد عرضنا كل ذلك بشكل ناقص اضطراراً، وقسمناه بشكل اصطناعى اضطراراً أيضا. ومن البديهى أن واقع الحياة الروحية لا يحصر ولا يجزأ ولا يصنف. فالحياة الروحية تسير بجميع عناصرها متكاملة ومراحلها تكون متداخلة. فمطالعة الكتاب مثلا تقود إلى الصلاة والصلاة تعود فتغتذى من مطالعة الكتاب. اليوم تشتاق النفس إلى صمت القلب وغداً تعود لتنقب فى الكتاب وتستنير بحكمته.

ومن البديهى أيضاً أن ملازمة الكتاب عقيمة هى إن لم تقترن بالطاعة لأحكامه التى وحدها تدخلنا إلى فهمه فهماً حياتياً غير وهمى.

وكذلك فإن الافخارستيا هى قمة ولكنها فى الوقت نفسه سند الطريق ووسيلته وغايته.

الكتاب المقدس فى الليتورجيا (القداس):

ثم إن النفس التى اتبعت وجه الرب وكرست حياتها للقائه، لا تشق طريقها اليه وحدها بل مع الكنيسة جمعاء، محفوظة فى وحدة التقليد الحى تنهل منه وتتفاعل معه.

الحياة الروحية كلها نقاش معاً. إننا نأكل الخبز الواحد لنشترك فى الجسد الواحد. وكذلك الكتاب وإن طولع فرديا فهو يُطالع على كل حال مع الكنيسة وفى الكنيسة.

«ألعلك تفهم ما أنت تقرأ؟.. كيف يمكننى إن لم يرشدنى أحد..»

إن النفس التى تطالع الكتاب كنسياً، مؤسسة على عقائد الإيمان ومستنيرة بشروح الآباء إنما تطيع روح الكتاب لذلك نراها تختبر وتكتشف تلقائيا ما اختبره الآباء وقالوه فى شرح الكتاب عندما تطلع عليه، وكل اختبار روحى جديد لها فى الكتاب يأتى منطبقاً على التقليد، وكأن التقليد ينبع منها تقليداً حياً، وهو بالفعل ينبع من الروح الواحد الذى فى الكنيسة وفينا وفى الكتاب.

وفى الليتورجيا بصورة خاصة تحقق النفس كل ذلك.

ففى الليتورجيا نجتمع أولا حول الكتاب لأن الجماعة تتألف أولا الكتاب مبدأ خلاصنا.

والليتورجيا تستحضر لنا الكتاب حياً ، مختارة فصوله ومرتبة مقاطعه ترتيباً موحى به وموحياً يشركنا بحياة الرب على مدار السنة . وتُنشد قطع الآباء التى تعلق على الكتاب وتبسط أمامنا أعمق رموزه ومعانيه ، فكأنها قطع من الأبدية تنزل الينا ، بل الليتورجيا تستحضر لنا صاحب الكتاب نفسه لأننا ، بعد أن حضر المسيح وأفاض علينا من روحه لسنا بعد فى عهد قديم بل الروح حاضر معنا إلى الأبد يفسر لنا الكتاب ويحييه ويحويه .

وكذلك فعندما يدخل الكاهن بالانجيل فى دورة الانجيل ونحن نقف حوله فكأننا نقف حول المسيح بالضبط كما كان الرسل والتلاميذ يلتفون حوله فى الجليل.. وعندما يتلو الكاهن الانجيل فكأننا نتلقى كلام الرب من فمه بالذات ، كلام قوة ونعمة وشفاء .

وليس كل ذلك وغيره فى القداس الإلهى سوى مرحلة ، سوى تحضيرنا لاقتبال المسيح والاتحاد به فى سر الافخارستيا مشتركين فى موته وقيامته وهكذا تنتهى مطالعة الكتاب ، وتتحول إلى سر كنسى . وهكذا لا ترجع كلمة الله اليه فارغة ، بل ترجع حاملة إيانا إلى أحضان الثالوث قرباناً وتسبيحاً ؟